

إعادة النظر في كتابة تاريخ البحرين

الجزء الأول — ١٧٨٣ ~ ١٨٦١ م

السبب لبحر بنجي صاغ مرصده بنفسه
في حدود الظروف البيئية والثقافية والتاريخية

بقلم :

د. روبرت لاندن

ان معظم تفاسير تاريخ البحرين منذ سنة ١٧٨٣ - الى فترة
قرنى حكم آل خليفة تركز على السياسة والأدارة وتطوير وتعامل
المصالح الأجنبية المتنافسة والسياسة الطبيعية وعلى قوى
الاستعمار وتواجد القوى المحلية ، خاصة التى كانت لها صلة
ببريطانيا العظمى . أخيرا تغيرت هذه الأنماط الى حد ما وتم
التركيز على دور البحرين فى سياسة النفط الدولية والبحوث حول
هذه المواضيع مدعمة بأسلوب حسن فى الكتابة والتفسير لكن
التركيز على تطوير السياسة او المنافسات الأمبريالية والنفطية فى
ضوء المبررات السياسية الطبيعية يمكن ان يؤدى الى صورة
مشوهة لثمنية البحرين الحديثة وخاصة للحوافز والدوافع التى
تسير تاريخها المحلى .

- على وجهة نظر غربية :
- (١) البحرين فى القرن الثامن عشر :
التواجد البريطانى المتزايد ، المنافسات
الأوروبية الاستعمارية والتجارية
وسيادة ايران ١٥٠٧ - ١٧٨٣ .
 - (٢) حكم آل خليفة واتفاقية الهدنة العامة
١٧٨٣ - ١٨٢٠ .
 - (٣) فرض الحماية البريطانية على
البحرين ١٨٢٠ - ١٨٩٢ .
 - (٤) الهيمنة البريطانية الأمبريالية
والحرب العالمية الأولى ١٨٩٢ - ١٩١٩ .
 - (٥) اصلاح نظام الإدارة السياسية فى
البحرين عصر بلغريف ، نهضة الصناعة
النفطية تحت مراقبة الدول الغربية
١٩١٩ - ١٩٥٧ .
 - (٦) تفكيك المراقبة البريطانية
السياسية ، تنمية صناعة النفط
١٩٥٧ - ١٩٧١ .

يورد المؤرخون كثيرا بعض ميولهم
الشخصية فى التفسير وتظهر هذه الميول
فى تقسيمهم العصر التاريخى الى فترات
فرعية . وفى تناول موضوع البحرين
تحت حكم آل خليفة (وفى بلدان خليجية
اخرى خلال ال ٢٠٠ سنة الماضية) يبدو
نفس الاسلوب فى تقسيم العصر التاريخى
من حيث الميول السياسية والأمبريالية
والسياسة الطبيعية . وتتسم هذه
التفاسير بالتحيز الى الجانب الغربى او
الأوروبى . وتعكس مؤلفات حتى
المؤرخين العرب سواء من البحرين
الحديثة او الخليج هذا الاسلوب المنحاز
لانهم درسوا على ايدي الاساتذة
الغربيين فيما يتعلق بتاريخ الشرق
الأوسط .

وفىما يلى نموذج لتقسيم العصور
التاريخية الحديثة للبحرين الذى يركز

بعض تفاسير المؤرخين لرسم صورة المواطن الخليجي على أنه لم يلعب الدور الاثنائيا في التطور الإقليمي

البحرين والخليج حتى الآن هم الغربيون ويكتبون من وجهة نظر لندن وباريس وواشنطن او موسكو وهم يسمون الأدوار التاريخية على الطراز التقليدي ليسهل لهم تغطية الأحداث بهدف محدد . فيمكن لنا ان نبرهن على ان مثل هذه التفاسير تخفي الملامح الرئيسية للمائتي سنة الماضية في تاريخ البحرين . ان التحاليل السياسية العقلية من نواح مختلفة تأتي بمعلومات كثيرة عن تاريخ البحرين منذ ١٧٨٣م ولكن خلال العقدين الماضيين تيسرت لنا الفرصة لإعادة النظر في هذا التاريخ من أفاق اوسع . لقد القى الضوء على المصادر القديمة بأساليب جديدة مثلما قام به المؤلف احمد ابو حاكمة كما تم العثور على مصادر جديدة واوردت الدراسات الميدانية التي دارت في البحرين اكتشافات جديدة (مثل البحوث لفؤاد خوري) الذي استخدم منهج العلوم الاجتماعية في (٢) دراساته . لذلك يمكن لنا ان ننظر الى الشعب البحرينى كشعب

(٧) البحرين ما بعد الاستقلال ، دور البحرين في التطورات النفطية العالمية وفي سياسات الخليج ، من ١٩٧١ حتى اليوم^(١).

وتتوافر اشكال أخرى لتقسيم العصور التاريخية مثلما ذكر أنفا من وجهة النظر الغربية وتركز كلها على السياسة وتستخف بتاريخ البحرين المحلى وذلك بتفسير تاريخ البحرين في اطار علاقاتها مع العناصر غير البحرينية والقوى الخارجية والعناصر السياسية الطبيعية او كجزء لمزايا الاستعمار البريطانى فحسب . ويتم تفسير الأحداث التاريخية البحرينية كأنها مجرد ردود فعل لطموحات وتصرفات الأجانب والحكومات الأخرى ولمشاريعها . وترسم هذه التفاسير صورة للبحرنيين او الخليجيين كأنهم لم يلعبوا الادورا ثنائيا تفاعليا في التطورات الإقليمية خلال بضعة القرون الماضية التى شهدت التغيير والتحديث ان هذه الميول معروفة لان معظم الباحثين والمختصين في شئون

تعامل في المائتي سنة الماضية بصورة « مبتكرة » مع القوى الخارجية والأجانب وحافظ على بل دعم هويته الذاتية . وبدلاً من أن ننظر إلى البحرينيين كشعب يتعامل بحيدة مع القوى التاريخية خارج فهمه أو مراقبته نرى بأن هذا الشعب صاغ مصيره بنفسه في حدود الظروف البيئية والثقافية والتاريخية خلال المائتي سنة الماضية ان المصادر الجديدة المتناولة والدراسات الجديدة التي ظهرت أخيراً تسمح لنا بمعرفة ابعاد التغيير الاجتماعي الاقتصادي الذي شهدته البحرين خلال القرنين الماضيين وبالتالي تخصب ادراكنا لتاريخ البحرين المحلي بالتفصيل . نقترح هذه النظرة الواسعة لنا بأن زيارات الضباط المستعمرين ليست عنصراً أساسياً لادراك تاريخ البحرين الحديثة بل ان العنصر الاساسي هو تفسير الأحداث ككل التي استحدثت المجتمع البحرينى التقليدي من استناده على التمور وصيد اللؤلؤ والتجارة الى مجتمع عصرى حديث . على الرغم من أن تصرفات الاجانب شجعت معظم ما حدث في البحرين منذ ١٧٨٣م الا ان العنصر الرئيسى في تاريخ البحرين الحديث . هو اسلوب تكيف المجتمع البحرينى مع متطلبات العصر الحديث . ان وصف الدور النشط الذى لعبه البحرينيون في تحديث بلدهم يميل الى الارتكاز على الأحداث الاجتماعية الاقتصادية في

مقدمة التطورات لان المحليين كانوا متورطين في هذه التطورات .

تشجع هذه الطريقة على تدوين تقسيم زمنى قائم على تفسير التطورات المحلية وتختلف تماماً عن التفسير التقليدى لتاريخ البحرين الحديث الذى ينطلق من دوافع سياسية ومصالح غربية يشير هذا الأسلوب ايضا الى حادثين تاريخيين هامين في قصة نهضة البحرين الحديثة . اولهما التحاق البحرين التدريبى بالنظام الاقتصادى العالمى وثانيهما بروز نظام اقتصادى عصرى حديث ذى طابع بحرينى خاص مرتبط بالنفط وتوفير الخدمات ومجتمع حضرى متقدم .

ويكون من الخطأ أن نستخف بالمقدرة السياسية لآل خليفة او بالسياسات الأمبريالية المختلفة التى اتبعت او فرضت من قبل بريطانيا والتى اثرت في ومهدت الطريق لوقوع هذه الأحداث وخاصة ان اقامة نظام سياسى مستقر نسبياً في منطقة الخليج وفي البحرين نفسها في القرن التاسع عشر كان من المقومات الاساسية التى ادت الى التغيير الاجتماعي الاقتصادي الاساسى في تاريخ البحرين الحديث . مع ذلك فإن هذا التطور السياسى يحمل اهمية في خلق جو ملائم ان لم يكن حاسماً في جلب تغيير جذرى في انماط الحياة في البحرين بالمقارنة بما كانت عليه قبل قرنين .

فضلاً عن ذلك فإن كيفية الحياة المستقبلية والركيزة الأساسية للسياسة

صناعة النفط مما أدى الى تغييرات في تركيب طبقات السكان وبالتالي في التنظيمات الاجتماعية الاقتصادية والسياسية حتى أصبحت البحرين حوالي ١٩٥٤ مجتمعا عصريا فعلا وليس مجتمع ما قبل الاستحداث .

٣ (نضج نظام اقتصادي مبني على توفير الخدمات ومرتبب بالنفط وتطوير مجتمع عصري بين ١٩٥٤ و ١٩٨٣ بشكل متزايد مع احتفاظ البحرين بهويتها المتميزة عن طريق تمسكها بالمواقف والممارسات الثقافية والفكرية والاجتماعية الاقتصادية والسياسية التي لها جذور عميقة في الزمن القديم . ان التهديدات الرئيسية التي تواجه البحرين مستقبلا ليست سياسية او اجتماعية اقتصادية فقط بل تشمل الضغوط المتزايدة على البيئة الطبيعية^(٣) .

١ - البحرين سنة ١٧٨٠م : قبل قليل من حكم آل خليفة

لا تتوفر لدينا معلومات كافية عن الأوضاع التي كانت سائدة في البحرين في أواخر القرن الثامن عشر ونعرف شيئا ما عن التطورات في منطقة الخليج وشرق الجزيرة العربية بصفة عامة لنفس الفترة . مع ذلك تمت دراسات حديثة اخيرا ورغم قلة الشواهد الكتابية والأثرية تحسنت معرفتنا عن هذه الفترة بالمقارنة لما كنا عليه سابقا^(٤) .

في البحرين تعتمدان في نهاية الأمر على كيفية ارتباط الشعب البحريني بالتجارة الدولية ومدى استيعابه لتلبية حوائج مجتمع حضري معقد وليس فقط الحفاظ على البيئة الطبيعية او الموارد الطبيعية المعرضة للضغوط المتزايدة . فمن منتصف القرن التاسع عشر تكيفت الأحداث السياسية بصورة متزايدة مع التطورات الاقتصادية والهجرة والتمدن وانفتاح الفرص الاجتماعية الاقتصادية والتطلعات المستقبلية وليس العكس .

واذا اخذنا في الاعتبار الجوانب الاجتماعية الاقتصادية والمحلية اضافة الى الجوانب السياسية والسياسة الطبيعية في التركيز على تاريخ البحرين فسيؤدي ذلك الى تقسيم زمني جديد يختلف تماما عن التقسيم الزمني التقليدي الذي ذكرناه سابقا والذي يركز على وجهة النظر الغربية .

من هذا المنطلق الجديد يمكن تقسيم تاريخ البحرين الحديث الى ثلاث مراحل هي :

١ (اقامة نظام مستقر في البحرين والمنطقة المجاورة بين ١٧٨٣ و ١٨٧٥ عقب توطيد دعائم حكم آل خليفة على البحرين وفرض الانجليز السلام في منطقة الخليج مما أدى الى تغييرات جذرية أخرى فيما بعد .

٢ (الحاق البحرين التدريجي بالاقتصاد العالمي من ١٨٧٥ و ١٩٥٤ ، اولا نتيجة تنمية تجارة اللؤلؤ ثم بسبب تأسيس

إقامة نظام سياسي مستقرا للبحرين في القرن التاسع عشر كان من المقومات الأساسية للتغير الإقتصادي في تاريخ البحرين الحديث

الأقل قسوة بالمقارنة بالمناطق المجاورة أعطت للبحرين مكانة مفضلة حسب المعايير المحلية كما وفرت هذه الميزات سياقاً بيئياً لتاريخ البحرين التقليدي . وان كانت نفس الظروف تتواجد اليوم الى حد اقل من سنة ١٧٨٠ الا انها لا تزال تؤثر في البحرين المعاصرة كما ستؤثر في المستقبل ايضا وربما بشكل حاسم^(٥) كان اقتصاد البحرين في سنة ١٧٨٠ يعتمد اساسا على هذه البيئة . فتواجد الماء العذب المستمر ساعد على زراعة النخيل والخضراوات عبر آلاف السنين كما ان حصاد السمك واللؤلؤ كان يشكل عنصرا اساسيا لاقتصادها التقليدي بينما كان التمر وصيد السمك يوفران الرزق للناس بصفة رئيسية وكانا مصدرين لدفع الخراج لمن يحكم الجزر . كانت التجارة والصناعة البحرية مبنية على تبادل المنتجات المحلية (خاصة اللؤلؤ) كما ان نقل البضائع الواردة من والصادرة الى موانئ شرق الجزيرة العربية كان مصدرا هاما في نظام

وعلى الرغم من ان اسم البحرين كان يطلق على معظم أجزاء شرق الجزيرة العربية شمال عمان الا انه منذ سنة ١٧٨٣ ، اطلق على الأرخبيل الرئيسي وبعض الجزر الأخرى الواقعة في شمال غرب قطر التي حكمها آل خليفة وتتكون البحرين من عدة جزر أهمها : البحرين نفسها والمحرق وستره وجزر حوار وهذه الجزر منخفضة الارتفاع وتحيط بها مياه ضحلة مما يجعل الملاحة فيها صعبة لسفن كبيرة خارج ممرات عميقة خاصة وفي نفس الوقت تحمي هذه المياه الضحلة مصايد الأسماك واللؤلؤ الواسعة التي تمتد في الخليج الى مسافات بعيدة . ومن ناحية علم طبقات الأرض فإن جزيرة البحرين الرئيسية هي الطية المحدبة لصخور مترسبة تنبع منها عيون الماء العذب العديدة في القسم الشمالي للجزيرة وفي سنة ١٩٣٢ تم اكتشاف اول آبار نفطها في الهضبة الوسطى المنخفضة .. هذه الموارد الطبيعية مدعمة بموقعها المركزي الآمن بمناخها

الاقتصاد المحلى التقليدى .

وعلى الرغم من انه تنقصنا معلومات مفصلة عن التنظيم الاجتماعى الاقتصادى وحتى التنظيم السياسى الذى كان سائدا فى البحرين فى سنة ١٧٨٠ الا اننا نعرف بأن مجتمعها حسب تقديرات الخليج العربى معقد نسبيا . تألف اكثر السكان المحليين من الفلاحين الذين زرعوا النخيل

وكانت الجزر شكليا تحت حكم شيوخ المذكور لبوشهر فى سنة ١٧٨٠ وكان الشيخ نصر بن مذكور هو حاكم بوشهر ومن المرجح انه كان له نائب (فى البحرين) لجمع الضرائب بواسطة المجالس الدينية . وكان شيخ بوشهر نفسه خاضعا لحكام الزند فى جنوب ايران ومقرهم فى شيراز وكان المذكور من قبيلة مطريش التى هاجرت من عمان الى ايران . وكان الكثير من العرب الذين كانوا اصلا من الجزيرة العربية وهاجروا الى الساحل الايرانى الخليجى قد رجعوا فيما بعد واستوطنوا البحرين هذه الجالية من الهولة كانت ثانى اكبر كتلة فى البحرين عددا فى سنة ١٧٨٠ . فى معظم الاحيان ترك الهولة صبغتهم القبلية واعتنقوا المذهب الشافعى فى الفقه الاسلامى الحنيف وسكنوا المدن التجارية والموانئ البحرينية الرئيسية كما عاش بضعة آلاف من العرب على صيد اللؤلؤ . ومع انه لا يمكن لنا ان نحدد بدقة مجموع عدد السكان الا انه

كان يقدر بين ١٠,٠٠٠ (وهذا عدد قليل جدا) و ٥٠,٠٠٠ (يبدو معقولا) وهم يسكنون ٦٠ او ٧٠ قرية والموانئ الكبرى كالمنامة .

لقد شهدت كل من الجزيرة العربية والخليج العربى فى القرن الثامن عشر بصفة عامة اضطرابات ثقافية واجتماعية واقتصادية وسياسية ولم تنج البحرين من التوتر الذى ساد حولها بسبب المنافسات الشديدة التى برزت بين مجموعات عربية مختلفة لكسب السيطرة على البحرين طوال ذلك القرن وبلغ عدم الاستقرار ذروته لمدة نصف قرن بين ١٧٧٠ و ١٨٢٠ م .

وكان لتلك الاضطرابات ٣ جوانب .

اولا : ادت الاضطرابات المستمرة الى التوتر بين القبائل الخليجية ودول المدن والفرق الاجتماعية السياسية واستمرت الاوضاع على هذا المنوال فى تلك الفترة كذلك كانت التحالفات السياسية فى المنطقة تتغير من حين الى آخر . ويرجع سبب وجود هذا التوتر التقليدى فى الشرق الاوسط قبل العصر الحديث الى التخصصية فى القبلية والدين وهى ميزة للمنطقة بصفة عامة اشدت هذا التوتر بسبب المحاولات العنيفة التى لجأ اليها الناس للتغلب على الفقر والجوع وتحسين مستوى المعيشة فى منطقة الخليج . فى هذه الظروف القاسية كانت موارد البحرين الطبيعية الغنية نسبيا تجذب انظار اية جماعة رغبت فى تحسين

مستواها المعيشى ككل وتأسست عدة مشيخات فى الخليج على يد البحارة الأقوياء طوال تاريخه واصبحوا مؤسسى دول . ولم تبقي تلك الدول دون تحديات لفترة طويلة خاصة بعد وفاة الشخصيات القوية التى اسستها او قادتها الى موقع المجد محليا . واشتد نهب القوافل التجارية كما تكثفت مجهودات لمراقبة مصادر الثروة المحلية كمصايد اللؤلؤ ومزارع النخيل بسبب التنافس القبلى القديم مما ادى الى استخدام العنف على البر والبحر على نطاق واسع وكذلك تأثرت التجارة الاقليمية والأنشطة البحرية من حين الى آخر . لذلك فان الاوضاع المتوترة التى سادت الخليج فى سنة ١٧٨٠ لم تكن الا انعكاسا لوضع تقليدى فحسب^(٦)

ثانيا : ان التقلبات التى وقعت آنذاك لم تكن الا امتدادا للظواهر الاجتماعية والثقافية التى هزت تاريخ الجزيرة العربية فى القرنين السابع عشر والثامن عشر . اذ برزت عدة وحدات سياسية فى الساحل الشرقى للجزيرة العربية فى القرن الثامن عشر فلم يكن هذا التطور مجرد صدفة . على الرغم من ان تأسيسها ونموها المبكر تبع الاساليب التقليدية فى بناء الدولة فى المنطقة الا ان ذلك التطور كان انعكاسا للحركات التى اندلعت فى القرن الثامن عشر . ان هجرة اعداد هائلة فى تلك الفترة كانت حدثا هاما للغاية وميزة خاصة للمنطقة وسببا

أساسيا للتغييرات السياسية . فقد شهد أواخر القرن السابع عشر وكل القرن الثامن عشر تحركات ضخمة للقبائل على بكرة أبيها من المناطق الداخلية للجزيرة العربية شرقا الى الخليج أو شمالا الى سوريا والعراق وخوزستان فى ايران (التي اشتهرت بـ عربستان لدى الغربيين بسبب استيطان المهاجرين العرب هناك) .

هاجر بعض القبليين العرب فيما بعد الى الموانئ الايرانية الخليجية المختلفة كالهولة والمذكور لبوشهر . وخلال القرن الثامن عشر تم نقل القبائل وفروعها وحتى مجموعات العائلات الى احياء مختلفة على نطاق واسع . كان المستجدون يميلون الى استيطان مواقع محددة (على الاقل لبضعة عقود) لكنهم لم يكونوا مرتبطين بقطعة الارض . بل انهم بصفتهم وحدات قبلية مستقلة ومنظمة كانوا مستعدين للانتقال الى مكان آخر اذا كان ذلك فى مصلحة الجماعة ككل . حدث ذلك عن طريق تأسيس أو مراقبة بعض النشاطات الاقتصادية كامتلاك النخائل الخصبية ومراقبة الموانئ والمدن وصيد اللؤلؤ وارشاد القوافل التجارية والنشاطات البحرية كتسيير السفن التجارية وممارسة الاعمال المتعلقة بهذه الأنشطة . بعد ان هاجرت القبائل الى منطقة الخليج انفصلت بعض الفروع وانتقلت الى أماكن جديدة بحثا عن بيئة

أفضل^(٧) .

وفتح آل خليفة للبحرين مثال من أمثلة كثيرة للنشاط الحيوي الذي أبدته القبائل المهاجرة في شرق الجزيرة العربية^(٨) . كان آل خليفة من أسرة بني عتبة (العتوب) وهي فرع لاتحاد عنزة بوسط الجزيرة العربية . ومن الواضح ان العتوب هاجروا من وسط الجزيرة العربية في أواخر القرن السابع عشر الى قطر ومارسوا نشاطات بحرية هناك . كان شرق الجزيرة العربية خاضعا لبني خالد الذين كان لهم مقر في واحة الاحساء . وفي بداية القرن الثامن عشر سمح بنو خالد للعتوب ان يهاجروا الى الكويت . وأنشأ العتوب هناك مركزا بحريا مزدهرا يخدم تجارة القوافل مع المناطق الداخلية لجزيرة العرب والعراق ويهتم باستغلال مصايد اللؤلؤ في جنوب الميناء^(٩) .

في عام ١٧٦٦ م هاجر آل خليفة من الكويت الى مصائد اللؤلؤ وأنشأوا ميناء الزبارة في الركن الشمالى الشرقى لقطر بالقرب من مصائد اللؤلؤ الكبيرة وأرخبيل البحرين . ازدهرت الزبارة كمركز هام للتجارة وتجارة اللؤلؤ تحت زعامة الشيخ محمد بن خليفة ويرجع سبب هذا الازدهار الى سياسة التجارة الحرة المعفاة من الضرائب . وأنشأ آل خليفة تحصينات في الزبارة وهكذا اجتذبت فروعا اخرى للعتوب الى هناك خاصة ملاحى الجلاهمة (معروفون بأسم الجابر أيضا) .

وقد حالف آل خليفة في تلك السنوات كثيرا من القبائل الاخرى غير العتوب التى كانت تستوطن قطر وكانت تحت حماية بنى خالد . ومع ذلك واجهت الزبارة بعض الاخطار من العرب من الساحل الايرانى الذين شعروا باستياء بسبب بروز قوة بحرية منافسة في الزبارة ومن بينهم العرب من بنى كعب الذين كانوا قد استوطنوا دورق على الساحل الايرانى في القرن السابع عشر وقبيلتان من عمان أصلا وقبيلة بنى صعب في بندر ريق والمذكور في بوشهر (الذين حكموا البحرين أيضا آنذاك) . فى الجنوب كان القواسم فى رأس الخيمة والشارقة والبوسعيد بمقرهم فى مسقط فى عمان وهم قوة بحرية لا يستهان بها . .

وفى عام ١٧٧٥ م ومرة ثانية فى عام ١٧٧٩ م بعث العرب من السواحل الايرانية قواتهم البحرية لغزو الزبارة تحت قيادة المذكور وتكونت هذه القوة البحرية من سفن كل من بندر ريق ودورق وبوشهر . وفرض آل خليفة الهزيمة على هذه الغزوات المتتالية أولا ثم أطلقوا هجوما مضادا بالتعاون مع العتوب الآخرين وحلفائهم من قطر ثانيا . وعقب سلسلة من المعارك التى دارت فى ١٧٨٢ - ١٧٨٣ طرد المذكور من البحرين نفسها . هكذا كان تأسيس حكم آل خليفة على البحرين نتيجة رئيسية للمنافسات القبلية العنيفة التى اجتاحت الجزيرة العربية والخليج فى أواخر القرن

الثامن عشر .

قد تم التعبير عن هذه الطموحات القبلية في سياق اطار تاريخي رائع لان منطقة الخليج في القرنين ١٨ وبداية ١٩ عكست بعض الميزات التي ينسبها المؤرخون الى المناطق الحدودية . داخل اطار خاص للزمان والمكان فان منطقة الخليج كانت بمثابة «صمام الامان» . وهى ميزة خاصة للمناطق الحدودية . ويبدو ان المنطقة كانت مأهولة بقدر ضئيل في تلك الفترة وكانت لديها القدرة على استيعاب عدد كبير من المهاجرين . وعلى الرغم من قسوة الظروف البيئية كان لديها مساحات كافية وموارد متوافرة لتجذب عددا كبيرا من المهاجرين القبليين من وسط الجزيرة العربية .

ان الاساليب التى أدت الى انشاء وتطوير كل من الكويت والزبارة والمدن الخليجية الاخرى في تلك الفترة توضح بان مجموعات كاملة للقبائل المنظمة كانت تهاجر من مستوطنات قائية وتجتاز مسافات طويلة وتنشئ مستوطنات جديدة على حافة الخليج .

ان قصة هجرة العتوب وانفصال آل خليفة ومهاجرتهم الى الزبارة أولا في عام ١٧٦٦ م ثم الى البحرين بين ١٧٨٣ و١٧٩٦ م تعطى لنا أمثلة للميزات الاجتماعية والاقتصادية للمناطق الحدودية . كان الدافع وراء تلك التنقلات الرغبة في تحسين الظروف المادية بالاضافة الى عنصر كرامة

واحترام المجموعة التى كانت لها صلة بالظروف المادية ووفرت الهجرة فرصة لتحسين ظروف المعيشة . لكن فى اخر الامر شجعت الهجرات ميولا لتفكيك المجموعات القبلية الكبيرة وتشتيتها بسبب الضعف الذى تسلل الى صفوف المهاجرين وتضامنهم القبلى عقب تورطهم فى صعوبات النقل ومواجهة بيئة جديدة . ومن المحتمل أيضا بان مجموعات كبيرة مكونة من أكثر من بضعة آلاف لم تجد الظروف القاسية وغير المستقرة وشبه الحدودية السائدة فى شرق الجزيرة العربية فى القرن الثامن عشر ملائمة لروح التعاون بين الوحدات المختلفة . وتمت الهجرات على مستوى الطوائف وليس على مستوى الافراد وكانت هناك مساهمة من حيث الحيوانات والادوات والمهارات وحتى القتال . فى الخليج .

أما الذين هاجروا كأفراد فكانوا التجار غالبا وهم غير قبليين . ولم يكن بإمكانهم ان يعيشوا الا بالتسامح من المجموعة التى كانت لها السيطرة على المنطقة . ومثلما يحدث فى المناطق الحدودية يتغلب القوى على الضعيف ويتغلب المهاجر الجديد على السكان المحليين .

وفى الحقيقة فان الخليج فى القرن الثامن عشر كان مثل منطقة حدودية ليس بسبب دخول عدد كبير من المهاجرين اليه وهم الذين يبحثون عن فائدة مالية

نفس الطراز حتى بداية القرن العشرين وهكذا أثرت في تحديث المنطقة خاصة في ابعادها الاجتماعية الاقتصادية .

هناك جانب آخر للتطورات الاجتماعية والثقافية التي غيرت الجزيرة العربية في القرن الثامن عشر هو الحركة التطهيرية أو الحركة الوهابية التجديدية الدينية التي انبعثت من نجد في وسط الجزيرة العربية خلال منتصف القرن الثامن عشر^(١) . ان نشوء الامارات العتوبية في كل من الكويت والزيارة تلقى دعما من بنى خالد الذين كانوا في الحكم في شرق الجزيرة العربية عندما جاء العتوب ، وفي أواخر السبعينات (١٧٧٠ م) أطيح بسيادة بنى خالد في المنطقة على يد آل سعود الذين توسعوا سلطة «وقوة» وأيدوا التفسير الوهابي للاسلام والتفسير الحنبلي للشريعة الاسلامية .

وخلافا لما كان عليه الوضع قبل عام ١٧٨٠ م عندما كان شرق الجزيرة تحت اشراف بنى خالد ، أصبح معظم البر الرئيسى لشرق الجزيرة العربية فيما بعد جزءا من الامارة السعودية/ الوهابية التي أصبحت كيانا سياسيا جديدا باستثناء فترة خلو العرش في الحكم السعودي في العشرينات (١٨٢٠) وأواخر القرن التاسع عشر ، وأصبح التوافق مع التواجد السعودي حاجة ملحة . ان الجانب الثالث للاضطرابات التي

وتحقيق طموحاتهم الاجتماعية فحسب بل لانها كانت منطقة سادت فيها الفوضى أيضا . وكافح المهاجرون الجدد القوى المحلية والمهاجرين الآخرين الذين كانوا ينافسونهم لاجل ضمان مكان آمن لانفسهم في المنطقة .

اذا نظرنا الى وصف للسياح نشعر ان معظم المدن كانت لها صبغة حدودية انشئت فيها بيوت جديدة رديئة وغير متينة ومبان تجارية حول تحصينات المدينة . رغم هذه الحقائق لا يجوز لنا ان نغالى في تقدير مواصفات الحدودية وعلى الأرجح ان الاوضاع شبه الحدودية كانت موجودة آنذاك خاصة في المناطق التي استوطنت فيها قبيلة كبيرة نسبيا وأصبحت جزءا هاما للمجتمع . كان قد أصبح الخليج ، بخلاف المناطق الحدودية الاخرى ، منطقة مأهولة الى حد كبير ذات طابع خاص في تنظيماتها الاجتماعية الاقتصادية التي استمرت دون مساس بها .

رغب المهاجرون الجدد في مشاركة الحضارة القائمة وليس في هدمها وانشاء حضارة جديدة . وبالنسبة للمهاجرين الذين جاءوا الى الخليج كقبائل بتنظيمات جديدة وباعداد ضخمة في تلك الفترة كانت منطقة الخليج منطقة حدودية بها بعض المخاطر وفي نفس الوقت كانت توفر تكافؤ الفرص للمجموعة كلها لتحسين الظروف المعيشية . من بعض النواحي ظلت هذه البيئة «شبه الحدودية» على

اجتاحت الجزيرة العربية في القرن الثامن عشر وهو العنصر الذي أصبح عنصرا حاسما بين ١٧٧٠ و ١٨٢٠ م ، هو التورط المتزايد للمتنافسين السياسيين الاوروبيين في الشؤون السياسية والتجارية في منطقة الخليج (٥) . فالمنافسات الفرنسية الانجليزية خاصة خلال حروب الثورة الامريكية والثورة الفرنسية و نابليون ، اجتذبت القوات البحرية الضخمة للدول الاوروبية الى منطقة الخليج ضمن نضالها للسيطرة على الهند ومنطقة المحيط الهندي .

في البداية أدت هذه المناورات الاوروبية والصدامات الامبريالية الى زيادة عدم الاستقرار السائد في المنطقة ، لكن انتصار بريطانيا في ١٨٢٠ م كقوة مهيمنة في هذا الصراع أدى الى ايجاد نظام سياسى مستقر . وأصبح هذا الاستقرار بدوره احد متطلبات التحول الاجتماعى الاقتصادى الاساسى الذى شهدته منطقة الخليج والبحرين في تاريخهما الحديث .

(٢) تأسيس متطلبات التغيير الاساسى :

توطيد دعائم حكم آل خليفة و ايجاد نظام مستقر فى البحرين ١٧٨٣ - ١٨٧٥ :

بين ١٧٨٣ و ١٨٧٥ م تم تطور البحرين من موقع معرض لعدم

الاستقرار الى موقع ساد فيه نظام واستقرار داخلى . وكان لهذا التغيير خمس سوابق ذات علاقة متبادلة :

أولا : بين ١٧٨٣ م و ١٨٢٨ م ، كان هذا الارخبيل من حين لآخر وفي بعض الاحيان باستمرار معرضا للغزو والهجوم والاحتلال من قبل مجموعات متتالية كانت لها مطالب فيه ، فتغير هذا الوضع وذاب مثل هذا الخطر تدريجا عقب تثبيت حكم آل خليفة على الجزيرة .

ثانيا : بين ١٨٢٨ م و ١٨٦٩ م عانت البحرين فترة من الاضطرابات الداخلية الدامية الشديدة الناجمة عن التنافس على الحكم وبلغت ذروتها بين ١٨٣٤ م و ١٨٤٦ م ثم بين ١٨٦٧ م و ١٨٦٩ م . وانتهت هذه الفترة بتولى الشيخ عيسى بن على الحكم في سنة ١٨٦٩ م وكانت البحرين آنذاك هادئة .

ثالثا : بين ١٨٦١ م و ١٨٧٥ م وتحت ضغط بريطانيا وعلى كره من حكام البحرين رفعت سيادتهم من على مساحات واسعة في البر الرئيسى في قطر واقتصرت على ادارة البحرين والجزر التابعة لها .

رابعا : ان الانجليز بعد ان قاموا باتصالات مبدئية بالمنطقة في ١٨١٤ م حتى ١٨٧٥ م رفضوا الاعتراف بمطالب بعض القوى في السيادة على بعض الاراضى معلنين انهم يرفضون تحول المنطقة الى منطقة قتال حتى ولو تطلب ذلك فرض الاستقرار بالقوة .

خامسا : بين سنوات ١٧٨٣ م و ١٨٧٥ م ظهر نظام اجتماعى اقتصادى خاص فى البحرين . وهو النظام الذى ضمن لـ آل خليفة مراقبة المصادر الاقتصادية الرئيسية وأيد الميول السائدة لأزدواجية المجتمع وفى نفس الوقت شجع تنفيذ المشاريع التجارية والبحرية . لقد مهدت هذه التحركات الخمسة الطريق لايجاد مناخ ملائم لحدوث تغييرات أساسية فى البحرين منذ أواخر القرن التاسع عشر^(١٢) .

عندما فتح آل خليفة البحرين فى ١٧٨٣ م ظل نظامهم فى الزبارة فى قطر وكان الشيخ الحاكم آنذاك وهو الشيخ أحمد بن محمد آل خليفة (حكم من ١٧٨٢ م الى ١٧٩٦ م) لا يزال يسكن هناك حتى توفى فى ١٧٩٦ م^(١٣) . وقد شارك ابنا الشيخ أحمد ، سلمان وعبدالله فى ادارة الجزيرة المفتوحة حديثا نيابة عن أبيهما .

وقد استوطن بعض الحلفاء القبليين من قطر جزر البحرين خاصة فى بعض القرى التى سكنها صيادو اللؤلؤ . وهذا التدفق الملحوظ زاد النسبة القبلية والنفوذ القبلى فى المجتمع البحريني . فى القرن التاسع عشر هاجرت مجموعات قبلية اخرى الى البحرين كالدواسر ، لتمارس صيد اللؤلؤ .

اضافة الى ذلك شجعت السنوات الاولى لحكم آل خليفة ازدهارا تجاريا استمر حتى العشرينات (١٨٢٠م) مما

ساعد على توطيد القوة السياسية لـ آل خليفة . مع ذلك أثارت القوة السياسية المتزايدة والرخاء الاقتصادى طموحات المتنافسين . فالعرب من كل من دورق وبندرريق وبوشهر تحدوا وجود آل خليفة بالبحرين لعدة سنوات بعد الفتح . لكن الخطر الحقيقى لسلطة آل خليفة على البحرين تجسد فى سلسلة من الغزوات التى قام بها السعوديون / الوهابيون والبوسعيديون / العمانيون ضد أقاليم البحرين بين ١٧٩٦ م و ١٨٢٨ م . أولا ، إن السعوديين الذين احتلوا الاحساء والقطيف فى ١٧٩٥ م انتقلوا الى قطر فى ١٧٩٦ م وحاصروا الزبارة . ولم يكن آل خليفة قادرين على التصدى لهذه الهجمات فتركوا الزبارة ونقلوا مقرهم الرئيسى الى البحرين .

وقد وضع هذا التحرك من قبل آل خليفة السعوديين فى موقف حرج لانه لم يكن لديهم قوة بحرية ملحوظة . والامر الذى كان يحمل أهمية أكثر هو مهاجرة معظم أسر آل خليفة من الزبارة الى البحرين مما أدى الى تعزيز قوتهم . فى ١٧٩٩ م قام سلطان بن أحمد حاكم مسقط بغزو البحرين عندما رفض آل خليفة طلبه بان تدفع السفن العتوبية الضرائب عند مرورها بمضيق هرمز . وعلى الرغم من ان البحرين تصدت للهجمات الاولى الا ان العمانيين احتلوها فى ١٨٠٠ م ولم يدم الحكم العمانى طويلا لان القادة من آل خليفة اتصلوا

بالسعوديين ورجعوا بتعزيزات لطرد الحامية العمانية في ١٨٠١ م .

حاول العمانيون استعادة الحكم على الجزيرة في ١٨٠٢ م في الوقت الذي قام حلفاء آل خليفة السعوديون بغزو عمان نفسها وفرضوا على معظم المنطقة (الامارات العربية المتحدة حاليا) اعتناق المذهب الوهابي . وقد تدخل السعوديون في شئون آل خليفة بصورة متزايدة حتى عينوا محافظا مقيما في البحرين في ١٨١٠ م فلجأ آل خليفة مرة اخرى الى ضرب القوى بعضها ببعض واستغلال الغزو المصرى للاقاليم السعودية في غرب الجزيرة العربية لنفهمهم بواسطة تحالفهم مع العمانيين وهكذا طردوا المحافظ السعودي من البحرين في سنة ١٨١١ م^(١٤) .

ودفع آل خليفة الخراج لعمان حتى ١٨١٣ م وأكدوا استقلالهم في تلك السنة بعد ان تكبدت عمان هزائم عسكرية متتالية . لقد قامت العلاقات البحرينية البريطانية في ١٨١٤ م عندما حصل آل خليفة على وعد بريطاني بالحفاظ على حيادهم في حالة نشوب مزيد من القتال مع عمان . ولم يمض وقت طويل حتى نشب القتال مرة اخرى . وتصدت البحرين لاربعة هجمات من عمان في كل من ١٨١٦ م و ١٨٢٠ م و ١٨٢٨ م بنجاح وكان القتال آخر مرة عنيفا للغاية . ومع ذلك فان هذه المعارك التي دارت بالقرب من المنامة في ١٨٢٨ م

كانت آخر معارك لـ آل خليفة على أرض البحرين في مقاومة الغزاة الخارجيين . ولم توجه أية تهديدات فيما بعد للبحرين .

كان هذا الوضع نتيجة عزم بريطانيا الذي وصلت اليه بالتدريج بين ١٧٩٨ م و ١٨٢٠ م بانه يجب عليها ان تفرض سلاما في مياه الخليج وتضع حدا للاضطرابات في المنطقة لكي تحافظ على أمن المواصلات وأمن المداخل الحدودية البعيدة لامبراطوريتها الهندية التي كانت قد اكتسبتها اخيرا . وانطلاقا من هذا الاساس قامت بريطانيا بحملات عسكرية في منطقة الخليج في كل من ١٨٠٥ م - ١٨٠٦ م ، و ١٨٠٩ م - ١٨١٠ م و ١٨١٩ م - ١٨٢٠ م . وكانت النتيجة النهائية لمظاهرة القوة هي توقيع عدد من القوى المحلية بما فيها البحرين على «اتفاقية الهدنة العامة» في سنة ١٨٢٠ م^(١٥) . على الرغم من ان عمان لم تكن طرفا في الاتفاقية .

وفي الحقيقة كان حليف بريطانيا في تنفيذها هو العمليات العسكرية المذكورة سابقا الا ان بريطانيا شعرت في أواخر العشرينات (١٨٢٠ م) بانه لو أيدت أية دولة محلية حتى لو كانت صديقة لها كعمان في اخلالها بالسلام في الخليج فانها ستعرض المصالح البريطانية الامبريالية ككل للخطر . وبين ١٨٣٥ م و ١٨٥٤ م تحول هذا الادراك الى اتباع سياسة متعمدة وعقدت بريطانيا عددا

الانجلوبحرينية الاولى^(١٧) . هكذا بين ١٨٢٨ م و١٨٦١ م زال خطر أى غزو خارجى يهدد البحرين بسبب صمود وحكمة آل خليفة من جهة وبسبب نظام الحكم الذى فرضته بريطانيا بالتدريج لتضمن الامان فى مياه الخليج .

من اتفاقيات الهدنة العامة فى البحار قصيرة المدى . فى ١٨٥٣ م حلت «اتفاقية السلام الدائمة» محل الاتفاقيات الاخرى^(١٨) . وانضمت البحرين الى هذا الترتيب فى ١٨٦١ م عندما تم التوقيع على الاتفاقية

الهوامش

1. G. Curzon-Persia & the Persian Question, London 1892. J.G. Lorimer, Gazetteer of the Persian Gulf, Oman, and Central Arabia, 2 Vol. (Calcutta), 1908-1915.
2. P. Tuson, The Records of the British Residency & Agencies In The Gulf (London), 1979.
3. J.A. Larkin, American Historical Review (Washington), 1982 Vol. 87, No. 3, June 1982, pp. 595-628.
4. A. Abu Hakima, History of Eastern Arabia, The Rise & Development of Bahrain & Kuwait. (Beirut, 1965)
5. Naval Intelligence Division, Iraq and the Persian Gulf (London) 1944, pp. 142-145.
6. Khuri-Bahrain, pp. 28-29
7. R.G. Landen, Oman Since 1856, Disruptive Modernization In A Traditional Arab Society (Princeton), 1967, pp. 3-28.
8. Z.M. Rashid, A Study of Saudi Relations With Eastern Arabia And Uman (1800-1871), McGill University, Chapters 1 & 2.

(٩) الوثائق التركية التى عثر عليها مؤخرا تشرح بالتفصيل اسباب الهجرة وخط سيرها . راجع موضوع العتوب فى الوثيقة العدد الاول .

10. Abu Hakima, History of Eastern Arabia ...
11. G. Rentz, Muhammad Ibn Abd al-Wahab (1702-1792) & The Beginnings of The Unitarian Empire in Arabia, University of California, Berkeley, 1947.
12. Savory, A.D. 600-1800, and Yapp, The Nineteenth and Twentieth Centuries, Persian Gulf States ... pp. 20-29.
13. Abu Hakima, History of Eastern Arabia.

(١٤) يراجع بحث (الشيخ سلمان بن احمد آل خليفة) فى نفس العدد .

15. -do- p. 117
16. Dubuisson, Qasimi Piracy & the General Treaty of Peace 1820 McGill University, 1975
17. Text in Hurewitz, Diplomacy ..., Vol. 1. opp. 143-144.